الأشكال الحيوانية في الفنون السومرية :

إن المنجزات الحضارية التي حققها الفنان في العراق القديم ترتبط بالأفكار والتقنيات والأساليب الفنية ويؤيد ذلك تاريخ الفن والدلائل المادية والاثارية في المزايا الفنية وبنية الحضارة ، ففي العراق القديم من الدلالات الفنية ما يؤكد أن فنان (سومر) [*] كان بمثابة الأستاذ لمن خلفه ، فكانت تماثيل الأشكال التي مثلها ذات تعبير وأفكار ذهنية بدت للعقول غربية ، حيث كان اتجاه الأشكال الفنية في العراق القديم نحو الطبيعة ؛ "يعتمد على تجريدات تقع خارج نطاق تأملات السومريين وكانت الأساطير العلاج لهذا النقص إذ كانت تفيد بوصفها إطار ملموسا للأشكال الحيوانية التي تستعين تحديد استنتاجاتها المجردة وديمومة تجلي الأفكار والتجارب فيها ، فالمعتقدات الفلسفية بكاملها تجسدها المثويولوجيا (السومرية) وهذا يوضح السبب في أن الإنجازات الصورية للأشكال الحيوانية إنما تمثل موضوع الكثير من الفنون السومرية" ، ولم يشترك النزوع إلى الطبيعة والتجريد الرمزي في الموضوعات حسب ، بل أنهما راحا منذ البداية يوطدان طابع الفن السومري في الصور المفردة وفي تركيب الأشكال الحيوانية ، فهاتان الصفتان الأساسيتان للفن لتصويري كانتا تتصارعان مع روحية الفنان السومري ، وعلى مر العصور فقد وظف الأساطير والرموز الأسطورية التي تشترك فيها الكثير من الأشكال الحيوانية الواقعية والمتخيلة على أختام اسطوانية حيث شاع استخدام الختم الاسطواني في بلاد العراق القديم حين جسد الفنان بكل دقة معتقداته ورموزه على سطح تلك الأختام ، فالحيوانات الوحشية والداجنة تحتل مكانة مهمة بوصفها عناصر ورموز للقوى التي تعزز حياة الإنسان أو تهددها ، وفي الكثير من الرسومات

(*) سومر (٢٨٠٠-٢٣٧١ ق.م) الاسم الذي يطلق على الجزء الواقع في أقصى جنوب بلاد وادي الرافدين وتعني "ارض سيد القصب" نظموا أنفسهم في مستهل الألف الثالث (ق.م) في سلسلة دويلات المدن ، ويعد عصر فجر السلالات فترة ازدهار عظيم في تاريخهم . (ينظر : دانيال ، كلين : موسوعة علم الآثار ، ت: ليون يوسف ، دار المؤمن ، بغداد ، ١٩٩٠ ، ص٣٤٣) .

مخلوقات مركبة أمثال النسر الذي له رأس أسد والتنين الذي يشبه الأفعى نرى في الإله الطائر (مدوجود) وهو النسر برأس الأسد رمز الخصب وحيوانين هما التنين الذي يشبه الأفعى ، ومثل تلك المخلوقات من ذوات الأربع تلف رقابهما الطويلة لكل اثنين منها مرتين ثم ينتهيان براسي أفعى ، "ففي هذه الحالات كان الفنان فيها يركب مجموعات رمزية من الرسوم الحيوانية ذات الأهمية الرمزية وكانت اغلب الموضوعات تتجه أو تدور نحو دلالة البطل الذي يحمي الحيوانات الداجنة من الوحوش المفترسة".

ونفذت الرموز الأسطورية للأشكال الحيوانية بدلالتها المختلفة ، قد نفذت باسلوب هندسي وتجريدي ، فنرى حيوانات برية مثل جديين ونباتات ويتوسط المشهد عين ، والختم الثاني فيمثل حيوانات ورموزاً أخرى مثلثة الشكل ومعينية ، وطيور جميعها منفذة بأسلوب هندسي مجرد يحمل الكثير من رموز الخصب .

مما تقدم نجد أن الفنان السومري قد رسم ووظف مخيلة في إيجاد أشكال تجريدية هندسية مع استخدامه للأشكال الواقعية والمتخيلة ذات البعد الأسطوري ، وهي أما متخيلة تماما ؛ أي إنها لا تنتمي إلى الواقع أو الطبيعة أو مركبة من حيوانات واقعية ، ولو نظرنا إلى الشكلين نجد الأول يمثل جديين متقابلين لشرب الماء الذي يخرج من خلال الشجرة المقدسة وخلفيهما يتوسط الإله (مروكود) يقترب وجوده بطقوس الخصب،أما الثاني ختم يمثل مشهد الصراع البطل الأسطوري (كلكامش) [*]حامي الحيوانات من الأسود[١**]

(*) كلكامش (Gilgamish) : البطل الأسطوري صاحب الملحمة المشهورة التي ورد فيها ذكر الطوفان ، وذكر كلكامش كأحد الملوك القدامى في الوركاء ، وقد دعاه نابليون ثلثيه آلهاً وثلثيه أنساناً . (ينظر: ألنجفي ، حسن : معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم ، المصدر السابق ، ص٨٤) .

(**) الأسد : للأسد دلالة (القوة ، الشجاعة ، الشمس ، الخلود ، الزمن) وهو رمز (القوة والموت) وصور كثيراً مع الآلهة (عشتار) و(أشور) ونحتت الأسود في بوابات المعابد والقصور لبعث الرعب في قلوب الغرباء ، وهنالك آلهة قديمة شعارها الأسد ، منها واحدة مثلت على باب بابل وذلك هو شعار(عشتار) ، كمظهر لعظمتها وقدرتها ، وهناك ربات مقرفصة على اسود في بلاد (سومر) وصور كلكامش الملك الأسطوري يخنق بيديه العاريتين أسدا ، وقد عمل الآشوريون كذلك على نحت صورهم وهم يقتلون أسدا في الصيد أو وهم

التي اشتبك معها انكيدو (هيئة بشرية + الثور) [*] ، فالتشابك في الأشكال البشرية والحيوانية الذي يعرف باسم شريط الأشكال ؛ كان واحداً من إبداعات الرسم على الأختام الاسطوانية ، فالأشكال الفردية تتشابك احدهما مع الآخر وتؤلف شكلاً تجريدياً بعيداً عن الطبيعة ، وقد أدى التجريد التصويري إلى تقليصات في الشكل مثلما المخلوقات المركبة التي مثلت من عناصر طبيعية للدلالة الرمزية عن قوة خارقة للطبيعة ، وفي نتاجات أخرى نجد الوحش الأسطوري يقف على رأس صف طويل من الوحوش

يطعنون بخناجرهم وجهاً لوجه أسدا واقفاً فدلالتها ، انتصار الملك على قوى الشر ، وكثير ما يشاهد في الآثار القديمة أسدين متقابلين ، يفصل بينهما شجرة ويعني أنهما يحرسان شجرة الحياة وجنة البابليين القدامى ودلالة على حراسة الأبواب ، اذ يشتهر بان للاله دور واق وهام وكانت السلطة السحرية لهذه الأسود تمنع من دخول قوى الشر سواء أكانت بشرية أو إلهية ، وهنالك (الأسد المجنح بهيئة بشرية) وهو يرمز إلى الحيوانات المركبة الطاردة للشر والسحر ، وهنالك شخصيتان أعطيت لقب (الأسد) ، فأبن (يعقوب) عليه السلام يسمى (جود هو أسد شاب) وسمي (يسوع المسيح) (عليه السلام) (أسد جود) ، وأمير المؤمنين الإمام (علي بن أبي طالب)(عليه السلام) ، صهر (محمد) (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أسد الله ، ونجد في الفن الإغريقي العديد من رؤوس الأسود المنحوتة تزين حافة سطح المعابد الإغريقية والرومانية وهي ذات شدق مفتوح مستخدم لتصريف المياه ، والأسد كان غالبا ما يجسد الحيوية والسلطة الحامية ويكون له في التقليد المسيحي مدلولات من الشيطان وكان الأسد ملكاً للحيوانات . (ينظر : سيرنج ، فيليب : الرموز في ؛ الفن – الأديان – الحياة ، المصدر السابق ، ص٨٦) .

(*) الثور: غالبا ماكان الثور في الفن القديم رمز القوة والقدرة وذلك منذ عصر ما قبل الكتابة وكان رمز الخصب والجنس والتكاثر ، ورمز القوة العضلية التي هي اقرب للتدمير منها إلى الخصب ، ووفق رأي بعض الاثاريين ؛ الثور رمز الشر والجهل والعبودية والظلم بالقضاء عليه يعني القضاء على التوحش والاستعباد ، أما الفنان العراقي القديم فإذا ما أراد أن يشكو ويعبر عن الظلم والحزن فانه يرمز بحاله إلى الثور الذي ينوء لحمل النير ، وكثيراً ما وصف الآلهة بالثور مثل : (الإله تموز ، شمش ، سين ، كلكامش ، انكيدو) ، وكان (الثور + هيئة بشرية) وهو ثور مركب مع هيئة بشرية وصور في الأختام على انه (انكيدو) ، وهناك (الثور المجنح + هيئة بشرية) وهي حيوانات مركبة تدعى (الشيدو او اللاماسو) وهي حامية للبوابات ومداخل القصور البابلية وظيفتها طرد الأرواح الشريرة ، وقرون الثور عبارة عن تاج أو خوذة مقرنة يرتديها الآلهة والملوك فقط وتعد آنذاك للألوهية ، وكان الفنان العراقي القديم يصور الآلهة بهيئة بشرية ويميزه عن بقية البشر بواسطة التاج المقرن ، ونجد إنها مرتبطة بالقوة التدميرية التي يحملها قرناه ، وقد كان الثور (أنيس) منذ عهد الأسرة الملكية المصرية الأولى ، الإله الزراعي رمز التوالد والقوة والخصب وكان موضعاً للعبادة . (ينظر: حنون ، نائل : عقائد الحياة والخصب في الحضارة العراقية القديمة ، دراسة غير منشورة ، بغداد ، ١٩٩٨، ص٩٩).

التي ظهرت في جميع الحقب دلالة عن الرعب الذي يشعر به الإنسان إزاء عجزه في عالم يعاديه، وهو "عفريت بجسم إنسان وراس لبوة فهو تجسيد درامي للمخاوف التي كانت في فكر الإنسان"، فلهذا المخلوق المخيف جسم إنسان (أنثى) / دلالة الجنس والخصب ، وراس لبوة/ دلالة القوة والسيطرة ، فتنفتح دلالاتها على الخلود من خلال تضايف معنى الحضور الجنس للآلهة عشتار وللبوة - الأسد ، وفي هذا النوع يركب الفنان ما بين الشكل الحيواني والشكل الإنساني وكأنه يحاول أن يعطي صفات الحيوان (الموظف) المميزة لإنسان يفتقر لهذه الصفة ، او أن الحيوان (المرسوم) هو معبر عن هذه الصفة المعبر عنها ، وفي الوقت نفسه فان هذا النوع يعطينا شكلاً عن إضفاء أو معالجة الشكل الإنساني بعد مزاوجته مع الشكل الحيواني ، أي المعالجة الشكلية الخالصة التي تحاول التعبير عن الفكرة أو المضمون أو الرمز والمعالجة الجمالية له .

إن الأسلوب الذي كان في بدايته تكعيباً هندسياً قد أصبح واقعياً ، أي أن الفنان كان يجتهد أكثر لرسم واقع منظور ذي تفاصيل تحاكي الحياة ومميزات فردية ، أي إنها انتقال من التجريد إلى التصويرية ، حيث كانت تماثيل الأشكال الحيوانية تكشف عن مدى القابلية للفنانين السومريين فأشكال الثيران والكباش[٢*] المجسمة تحتفظ بوقار وثقل ، ذلك أن الفنان بيد غير مسترخية كان ينحت الحيوانات المدجنة المرتاحة والتي كانت تثقب فيها فجوات للتطعيم الملون فيصور كبشاً قد صيغ في موقف مستيقظ ووحشي ، أضفيت الضخامة على القرنين واتجه رأسيهما الحادان إلى أمام

(*) الكبش : كانت في العراق القديم الكباش و(النعاج) تكون قطيع (انانا) المقدس ، وكانت قوة انانا تعد كأنها مجسدة في هذه الحيوانات ، وقد كانت هذه الربة واحدة من الآهتين صاحبتي المدينة السومرية ، وفي مصر يوجد كثير من (الكباش) المصنوعة من الحجر ، وهي اكبر مما عليه من الطبيعة وقد كان رمز (آمون–رع) الإله الشمسي الكبير ، وغالبا ماكان ينحت جسم إنسان براس الكبش ذي قرنيين أفقيين في الآثار المصرية ويرسم على جوانب القبور ، ويمثل أيضا رمز الإله (خنوم) الإله الخزاف الذي يصنع دولابة جسد الإنسان المتولد حديثا ، ويحتل الكبش مكانا في المعابد الإغريقية وكالآلهة المصرية كان يهتم لعالم الأموات كما في عالم الأحياء وأصبح رأسه ذو القرون الذي ينحت على القبور رمز الخلود ، وكان الإله الإغريقي الروماني (هرمس) راعياً يوصف بالكبش ، ويمثل أحيانا حاملاً على كتفيه نعجة بصفته راعياً حالماً لأنه حرر السكان من الطاعون. (ينظر: سيرنج ، فيليب :الرموز في ؛ الفن – الأديان – الحياة ، المصدر السابق ، ص٥٥) .

فهما سلاحان مهيئان لكل طارئ ، والجسم مكتنز لكن بعض الضغوط الخفيفة على الطين تعطينا دلالة إلى الحياة بالإكراه' فتجسيد الحيوانات المقدسة بهيئة تماثيل مثل تجسيد الكبش عن الآلهة (أنآنا) وقطيعها المقدس ، فضلا عن رؤوس الثيران التي استخدمت بمثابة رؤوس مزينة لعدد من القيثارات ، فرأس الثور الذي تزينه لحية بشرية كان يرمز إلى ثور السماء ، والحيوانات التي ترمز إلى القوى الخارقة السحرية قد أضيفت عليها الآن صفات بشرية والواقع إنها على عكس كل القيم ، ترى وهي تحتفل ، وقد استعمل للتزيين ، فنجد فيها أن (كلكامش) المتعري الجسم امسك بثورين لهما رأس إنسان وتأتي سلسلة من الحيوانات في شخوص رجال ،مثال ذلك كلب(**)، يغمد في حزامه خنجر ، ويحمل طاولة خشب معبأة ويعقبه أسد يحمل قدحاً وجرة كبيرة ، واتخذت الاستعدادات لإقامة وليمة يعزف فيها حصان أو حمار على قيثارة وابن أوى على الصلصال ، ويقوم الدب بالرقص ويحمل شيئاً آلة وكأنه يعزف الموسيقى ويأتي بعد

ذلك رجل بهيئة عقرب وفي يده لفة ويعقبه غزال يمسك لفافتين أو كأسين مليئتين من وعاء كبير خلفه(*) .

أما الإناء ألنذري(**) في هذا الإناء تصور المعرفية الأسطورية للفنان السومري الأشكال بما يتناسب مع أسطورة الخلق وعلاقة الآلهة

(**) الكلب : صور الكلب في مختلف الحضارات ، وأشير إليه في القرآن الكريم في تصوير قصة أهل الكهف (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة ثامنهم كلبهم قل ربي اعلم بعدتهم) (سورة الكهف من الآية ٢٢) ، وبعضهم يمجده حيث يقولون بأنه كان مرافق الرسول (محمد) (صلى الله عليه وآله وسلم) عند دخوله مكة ، والكلب رمز الوفاء ولهذا السبب فان مشاهدات قبور الأساقفة في القرون الوسطى أرجل موضوعة على كلب ، ويمثل الكلب شكل الإله (أنوبيس) عند المصريين . (ينظر: مهدي ، ثامر : من الأسطورة إلى الفلسفة والعلم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١، ١٩٩٠، ص٢٥) .

(*) مازالت فكرة إضفاء بعض السمات الحيوانية على صفات الإنسان أو الأشخاص ، وهي فكرة قديمة جداً ، فعالم الحيوان ينعكس على العلاقات الاجتماعية والإنسانية في عالم الإنسان ، فيقال هذا حمار كدلالة للغباء ، أو انه ثعلب كدلالة للمكر ، وإنسان مثل الحصان كدلالة للصحة والقوة وشجاع كالأسد ، وهكذا .(بارو ، أندريه : سومر فنونها وحضارتها ، المصدر السابق ، ص٢٠٠) .

(**) الإناء ألنذري : يعود إلى عصر الوركاء في مدينة (أنن) ، ويتكون من أفاريز ثلاثة لموضوعة احدهما فوق الآخر ، وهو صورة شاملة لموكب ديني باستعراض طويل لشخوص يقدمون القرابين لحيوانات منذورة .

بالكائنات فابتدأ بالماء ثم النبات ثم الحيوان ثم الإنسان المعمر لتندمج تلك العلاقات والآلهة ، أي أن حركة الأشياء تتجه نحو أن تتكامل مع النذور المقدمة للآلهة التي أثمرت وتكرست بفضل رعايتها ، ونرى فيه شيوع الرمزية والتي تنقلت إلى عالم منسوج من الخيال والأساطير ، بواسطة الرموز والدلالات المختلفة والإناء مكون من أربع أشرطة ، في الأعلى نجد الشخصية الإلهية الواقعية والتي تمثل (انانا - عشتار) وهي تتلقى الهدايا ، فالموضوع بأكمله يمثل دور الحياة المستمرة ، ونشاهد رموز الأشكال الحيوانية تتمثل بصف من قطيع (كبشاً وبقرة [***] وحملاً [****]) ، بصفتها رموز أسطورية مقدسة ، غير أن الشيء الذي يثير الحيرة هو وجود كبشين يحملان أشكالاً صغيرة لا نعرف كنهها ، ونجد موكب الحيوانات تتحرك على امتداد القطعة وهو مشهد للاحتفال بـ(الزواج السحري) كما في .

وحيثما كانت الحيوانات بقيت تظهر في صورتها الطبيعية سابقاً فان هذه الكائنات لم تستحل إلى مجرد خطوط رمزية فحسب وإنما اندمجت ضمن العناصر الأخرى ذات الطابع الزخرفي ولم يعد لها غرض آخر غير الدلالات الرمزية التجريدية .

([***]) استخدم شكل حيوان البقرة رمزاً للخصوبة والخير والتكاثر ، وهي رمز للآلهة ألام (ننحرساك) وكذلك الآلهة (نينونا) والإله كلكامش رمزها البقرة الوحشية المقدسة ، وأكثر ما مثل الفن المصري البقرة المقدسة في الربة (حاتور) الحامية للفرعون أو مرضعته لكي تنفث فيه اللبن الإلهي ، وحياة الآلهة نفسها ، وغالباً لا يوجد من البقرة سوى الرأس أو حتى الآذان والقرون . (ينظر: سيرنج ، فيليب :الرموز في ؛ الفن – الأديان – الحياة ، المصدر السابق ، ص٥٥) .

([****]) كان الحمل هو الحيوان الذي غالبا ماكان يضحى به للآلهة البابلية وقد نشر نصاً آشوريا بابلياً مؤكداً أن : الخروف هو البديل المقام مقام البشرية ، وكذلك في العهد القديم فقد أبدلت أضحية (إبراهيم) بابنه (اسحق) (عليه السلام) بخروف ، وللمضمون نفسه قد أشير إليه في القران الكريم وهذا المفهوم مازال مستخدما إلى الآن ، والحمل في العهد الجديد هو رمز المسيح ، الذي ضحى من اجل البشرية والذي اسلم إلى الموت وهو بوداعة الحمل ، وغالبا ما تمثل النقوش وتماثيل المسيح ، تحت مظهر الراعي الصالح حاملاً بين ذراعيه حملاً ونجده أيضا في الأختام الاسطوانية الآشورية . (ينظر: سيرنج ، فيليب : الرموز في ؛ الفن – الأديان – الحياة) ، المصدر السابق ، ص٥٥) .